الحــجُّ رحلةٌ إيمانيةٌ

الحمدُ للهِ الذي غمرَ صفوةَ عبادِهِ بلطائفِ التخصيصِ طولًا وامتنانًا، وألّفَ بينَ قلوبَهُم فأصــبحُوا بنعمتهِ إخوانًا، ونزعَ الغلَّ مِن صــدورِهِم فظلّوا في الدنيا أصــدقاءَ وأخدانًا، وفي الآخرةِ رفقاءَ وخلانًا، وأشــهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَهُ لا شـريكَ لهُ، وأشــهدُ أنّ مُحمدًا عبدُ اللهِ ورسولُهُ، الرحمةُ المهداةُ، والنعمةُ المسداة، تقــولُ أمُّنَا عائشةُ: لَمَّا رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طِيبَ نَفْسٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ عَـزَّ وَجَلَّ لِي، فَقَالَ: « **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّـرَ، وَمَا أَسَـرَّتْ وَمَا أَعْلَنَتْ** ». فَضَحِكَتْ عَائِشَةُ حَتَّى سَقَطَ رَأْسُهَا فِي حِجْرِهَا مِنَ الضَّحِكِ. قَالَ: فَقَالَ: لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « **أَيَسُــرُّكِ دُعَائِي** »؟ قَالَتْ: وَمَا بِي لَا يَسُرُّنِي دُعَاؤُكَ. قَالَ: « **وَاللَّهِ إِنَّهَا لَدَعْوَتِي لِأُمَّتِي فِي كُلِّ صَلَاةٍ** ».

وبعــدُ،، فإنّ خطبتَنَا بعونِ اللهِ وتوفيقِهِ ورعايتِهِ تدورُ حولَ هذينِ العنصـرينِ:

أولًا: الحجُّ فريضةٌ محكمةٌ يحرمُ التهاونُ فيها للقادرِ عليها.

ثانيًا: المظاهرُ الإيمانيةُ لفريضةِ الحجّ.

العنصرُ الأولُ: الحجُّ فريضةٌ محكمةٌ يحرمُ التهاونُ فيها للقادرِ عليها.

الحجُّ ركنٌ مِن أركانِ الإســلامِ، امتنَّ اللهُ بهِ على هذه الأمةِ، ليعلِي قدرهَا، ويعظمَ شــأنَهَا، ويباهِي بها الأممَ على مرِّ العصورِ والأزمانِ، وهو وزيارةُ مكانٍ مخصوصٍ في زمانٍ مخصوصٍ بفعلٍ مخصوصٍ، بشرائطَ مخصوصةٍ، وهو خامسُ أركانِ الإسلامِ، يجبُ في العمرِ مرةً واحدةً، وقد حجَّ رسولُ اللهِ ﷺ مرةً واحدةً، وكانت فرضيتُهُ في السنةِ السادسةِ مِن الهجرةِ، وقيلَ: في السنةِ التاســعةِ، ودليلُ وجوبهِ، قولُ اللهِ تعالى: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِــعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً**

لِلْعالَمِينَ * فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ ﴾. [آل عمران،96، 97].

إنّ أولَ بيتٍ وُضـعَ للناسِ، أي: وُضـعَ للعبادةِ وجُعلَ مُتعبدًا لهم، والواضـعُ هو اللهُ تعالى. وقِيلَ المرادُ: إنّه أولُ بيتٍ بالشـــرفِ لا بالزمانِ. مباركًا: كثيرُ الخيرِ والنفعِ لِمَن حجَّهُ واعتمرَهُ واعتكفَ دونَهُ وطافَ حولَهُ وهدىً للعالمين؛ لأنه قبلتهُم ومتعبدهُم، فيه آياتٌ بيناتٌ، كانحرافِ الطيورِ عن موازاةِ البيتِ على مدَى الأعصارِ، وأنَّ ضوارِي السباعِ تخالطُ الصيودَ في الحرمِ ولا تتعرضُ لها، وأنّ كلّ جبارٍ قصدَهُ بسوءٍ قهرَهُ اللهُ كأصحابِ الفيلِ. **[تفسير البيضاوي]**.

ومِن السنةِ قولُ رسولِ اللهِ ﷺ: « بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ ». [سنن الترمذي وغيره].

وعندَ مسلمٍ، مِنْ حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا »، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ "، ثُمَّ قَالَ: « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ ». والإجماعُ منعقدٌ على فرضيتِهِ، وأنَّه الركنُ الخامسُ مِن أركانِ الدينِ، والمتممُ لبنيانهِ، تتلاقَ فيه جميعُ البشرِ، ويسجدونَ شكرًا للهِ على أنَّ هذا الدينَ قد انتشرَ، اللغاتُ تختلفُ، لكن تتوحدُ في البيانِ، وتفصحُ باللسانِ، وتصدحُ في كلِّ مكانٍ لبّيكَ اللهُمّ لبّيكَ، يا لهَا مِن عزةٍ للمسلمِ الغيورِ، تتجلّى بهذه الفريضةِ كلُّ الأمورِ، وتتكشفُ بها الحقائقُ، ويُدرِكُ بهَا كلُّ ذي بصيرةٍ كمًّا هائلًا مِن الحقائقِ، أنّ هذا الدينُ غالبٌ، وأنّ قاصدَهُ هو الصائبُ، وكلَّ صادٍّ عنه حتمًا سعيهُ خائبٌ، فيا سعدَ مَن لحقَ بالركبِ، وتمسّكَ بحبلِ اللهِ المتين، و يا حسرةَ مَن تعجلَ الفانيةَ، وحادَ عن الطريقِ المبين.

العنصرُ الثالثُ: المظاهرُ الإيمانيةُ لفريضةِ الحجّ.

مِن جمالِ الفرائضِ في الإســـلامِ، والعباداتِ التي كلفَ اللهُ تعالى بها الأنامَ، تعمقُ قضيةِ الإيمانِ، والكفُّ عن الفواحشِ، وتهذيبُ الأخلاقِ، والحجُّ واحدةٌ مِن هذه العباداتِ التي

تحضُّ على هذه الكمالياتِ، والحكمِ المباركاتِ، والبعدِ عن الزلاتِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ** ﴾.

نهَى الحقُّ سبحانَهُ وتعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ عن كلِّ مظهرٍ سلبيٍّ عندَ أداءِ هذه الفريضةِ، فنهَى عن الرفثِ: وهو الجماعُ ومقدماتهُ الفعليةُ والقوليةُ. والفسوق وهو: جميعُ المعاصي. والجدال وهو: المماراةُ والمنازعةُ والمخاصمةُ، لكونها تثيرُ الشرَّ، وتوقعُ العداوةَ. ومقصودُ الحجِّ هو الذلُّ والانكسارُ للهِ، والتقربُ إليهِ بمَا أمكنَ مِن القرباتِ، والتنزهُ عن فعلِ السيئاتِ، حتى يكونَ الحجُّ مبرورًا، والمبرورُ ليس له جزاءٌ إلّا الجنة، وهذه المعاصي وإنْ كانت ممنوعةً في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، فإنّه يتغلظُ المنعَ عنها في الحجِّ، وذلك لحرمةِ الزمانِ والمكانِ والحالِ التي يكونُ عليها المسلمُ.

ثُم أمرَ تعالى في قولهِ: ﴿ **وَتَزَوَّدُوا** ﴾ بالتزودِ لهذا السفرِ المباركِ، وذلك بالاستغناءِ فيه عن المخلوقين، والكفِّ عن أموالِهِم، فالزادُ الحقيقيُّ المستمرُّ نفعهُ لصاحبهِ، في دنياه، وأخراه، هو زادُ التقوى، فهو زادُ إلى دارِ القرارِ، والموصلُ لأكملِ لذةٍ، وأجلِّ نعيمٍ دائمٍ، ومَن تركَ هذا الزادَ، فهو المنقطعُ الممنوعُ مِن الوصولِ إلى دارِ المتقين. وهذا مدحٌ للتقوى. [تفسير **السعدي**].

ومِن المظاهرِ الإيمانيةِ لهذه الفريضةِ الجليلةِ أنَّ العبدَ مأمورٌ بأنْ يتحرّى الحلالَ في النفقةِ، ويحسنَ الكسبَ، ويتجنبَ الحرامَ، ويبتعدَ عن كلِّ مالٍ فيه شبهةٌ، وهذا إنْ كان العبدُ مأمورًا به في كلِّ وقتٍ إلّا أنّه جاء التأكيدُ عليه في هذه الفريضةِ، والتشديدُ والوعيدُ، والزمَ الأكيد لِمَن لوّثَ رحلتَهُ الميمونةَ بمالٍ حرامٍ، وسعيٍ غيرِ مبرورٍ، فعند الطبراني، من حديث أبي هريرة ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ ، قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ حَاجًّا بِنَفَقَةٍ طَيِّبَةٍ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ، فَنَادَى: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، زَادُكَ حَلَالٌ، وَرَاحِلَتُكَ حَلَالٌ، وَحَجُّكَ مَبْرُورٌ غَيْرُ مَأْزُورٍ، وَإِذَا خَرَجَ بِالنَّفَقَةِ الْخَبِيثَةِ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ، فَنَادَى: لَبَّيْكَ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ، زَادُكَ حَرَامٌ وَنَفَقَتُكَ حَرَامٌ، وَحَجُّكَ غَيْرُ مَبْرُورٍ ».

فمتى حجبَ المرءُ نفسَــهُ عن المحرماتِ، وحرصَ على فعلِ الواجباتِ، وجردَ نفقتَهُ مِن كلِّ الآفاتِ، وسريرتَهُ مِن الحقدِ والحسدِ والمشاحناتِ، جاءتهُ البشرياتُ مِن سيدِ المرسلين، بأنَّهُ عائدٌ مِن ذنوبهِ كيومِ مولدهِ، على حالهِ التي خرجَ بهَا مِن بطنِ أمهِ بإذنِ ســـيدهِ، خاليًا مِن الذنوبِ والأوزارِ، صحيفتُهُ نقيةٌ مِن كلِّ الأكدارِ، فيالَهَا مِن رحلةٍ إيمانيةٍ، جادَ بها خيرُ البريةِ، فاستبشرْ يا صاحبَ الحجِّ المبرورِ بهذه الهديةِ، ففي الصحينِ، قَالَ رســولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ».

وفي الصحيحينِ أيضًا، قالَ رســـولُ اللهِ ﷺ: « الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ ».

أي: مَن امتنعَ عن الرفثِ والفسوقِ أيامَ الحجِّ خاصةً أزالَ ذلك كلَّ فسوقٍ سبق، فرجعَ إلى الصفاءِ والطهارةِ والخلوصِ كيومِ ولدتهُ أمهُ، لا ذنبَ لهُ، وبقي حجُّهُ فاضلًا له، وباقيًا عليه؛ لأنّ مِمّا شرعَ اللهُ ـ عزّ وجلّ ـ أنّ الحسناتِ يذهبنَ السيئات.

وأنّه لا جزاءَ لهُ ســـوىَ الجنة، يعني: أنّه زادتْ قيمتُهُ، وكثرتْ مقدارُه، وغلا ثمنهُ، فلم يكنْ يقاومهُ شـــيءٌ مِن الدنيا، ولا نفيسَ مِن أعراضِـــهَا، فلذلك قال: « ليس له جزاءٌ إلّا الجنة »؛ لأنَّ الجنةَ هي دارُ النظرِ إلى اللهِ ـــ تعالى ـ، وهي مقرُّ الأمنِ مِن كلِّ مخوفٍ، والنيلُ لكلِّ مطلوبٍ، والوصـــولُ إلى كلِّ مشـــتهى، والاجتماعُ لكلِّ مشـــتاقٍ، إلى غيرِ ذلك. [**الإفصـــاح عن معاني الصحاح**].

ومِن مظاهرِ الإيمانِ في هذه الرحلةِ أنَّها رحلةُ أمانٍ، في شـهورٍ يأمنُ فيها كلُّ شـيءٍ على نفسـهِ، إنسـانٌ وحيوانٌ وطيرٌ وكافةُ المخلوقاتِ، فهي في الأشـهرِ الحرمِ، التي قالَ اللهُ عنها: ﴿ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾. [التوبة، 36].

إنّ عدةَ شـهورِ السـنةِ اثنَا عشـرَ شـهرًا في كتابِ اللهِ، الذي كتبَ فيه كلَّ ما هو كائنٌ في قضـائهِ الذي قضَـى، هذه الشـهورُ الاثنَا عشـرَ منها أربعةُ أشـهرٍ حرمٌ كانت الجاهليةُ تعظمهن، وتحرّمهن، وتحرّمُ القتالَ فيهن، حتى لو لقي الرجلُ منهم في هذه الأشـهرِ قاتلَ أبيهِ لم يقتلْهُ لشـدةِ

تعظيمِهَا، وهن: رجبُ مُضـر، وثلاثةٌ متواليات، ذو القعدةِ، وذو الحجةِ، والمحرمُ. وبذلك تظاهرتْ الأخبارُ عن رسولِ اللهِ ﷺ. [**تفسير الطبري**].

ففي الصحيحين قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: « **إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّـنَةُ اثْنَا عَشَـرَ شَـهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبٌ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ** ».

قالَ قتادةُ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى صـفَايا مِنْ خَلْقِهِ، اصْطَفَى مِنَ الْمَـــلَائِكَةِ رُسُـــلًا وَمِنَ النَّاسِ رُسُلًا وَاصْطَفَى مِنَ الْكَـــــلَامِ ذِكْرَه، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَرْضِي الْمَسَاجِدَ، وَاصْطَفَى مِنَ الشهور رمضان والأشهر الحـــــرم، وَاصْطَفَى مِنَ الْأَيَّامِ يَـــــــوْمَ الْجُمُعَةِ، وَاصْطَفَى مِنَ اللَّيَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَعَظِّمـــوا مَا عَظَّمَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا تُعَظم الْأُمُـــورُ بِمَا عَظَّمَهَا اللَّهُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْفَهْـــمِ وَأَهْلِ الْعَقْلِ.

فبانَ مِمّا مضَـــى أنّ اللهَ عزّ وجلّ عظّمَ هذه الرحلةَ الإيمانيةَ، وامتنَّ بها على الأمةِ المحمديةِ، فعظّمَ فيهَا الأجرَ، وعظّمَ فيهَا الزمانَ والمكانَ، وأمَّنَ كلَّ مخلوقاتهِ ليتفرغَ الناسُ فيهَا لعبادتهِ، وبيّنَ فيها أنّ الإســلامَ رســالةُ ســلامٍ إلى الأنامِ، لكن جاءَ التحذيرُ مِن الاســتخفافِ بالحرماتِ، وإنْ فُعلَتْ معها الطاعاتُ، فقد يذهبُ القبيحُ بالحسـنِ، ويلقَى العبدُ مفلسًـا، ويعودُ مِن رحلةِ الإيمانِ كما ذهبَ، فعملُهُ مردودٌ، وحجُّهُ مأزورٌ غيرُ مبرورٍ، فعَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ رسول الله : « لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَـــنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًـــا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُـولَ اللَّهِ، صِـفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: « أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا ». [**سنن ابن ماجه**].

فاحترسْ لحجّكَ، وأخلصْ نيتَكَ، واحفظْ نفسَـكَ مِن الموبقات، واجعلْ زادَكَ التقوى، ومتاعَكَ مِن الحلالِ الخالصِ، ترجع بحجّ مبرورٍ، وتجارةٍ لن تبور.. اللهم تقبلْ مِنّا صالحَ الأعمالِ، واجعلْ بلدَنَا مصرَ سخاءً رخاءً وسائرَ بلادِ المسلمين، ووفقْ ولاةَ أمرِهَا لِمَا فيه الصلاحُ والفلاحُ .. اللهم آمين!

بقلم/ مسعود عرابي .. عضو هيئة تدريس بجامعة الأزهر .. وخطيب مكافأة.